هشام شرابي..
عام على رحيله

هشام شرابي في حزب أنطون سعادة

□ جان داية

لم يخلُ اعتناقُ هشام شرابي لعقيدة سعادة وانضواؤه في حزبه من الغرابة والطرافة، أُسوةً بمعظم المنتمين إلى الأحزاب في لبنان. ذلك أنّ شرابي كان معجَبًا بميخائيل نعيمة ومؤمنًا بفلسفته الروحية من جهة، وعضوًا في جمعية سياسية عروبية من جهة أخرى. فحين طَلَبَ منه أستاذُه في الجامعة الأميركية شارل عيساوي إعدادَ دراسة حول أحد الأحزاب اللبنانية، اختارَ الحزبَ السوري القومي الاجتماعي (ذا الحضور الملحوظ في الجامعة الأميركية) مصمِّمًا على اكتشاف أخطائه لإشباع فضوله. وربما يكون هناك هدفٌ آخر وراء الاختيار لم ينوِّه عنه شرابي في مذكِّراته، وهو دحضُ حجّةِ سعادة التي ضَمَّنها النقدَ اللاذعَ إلى نعيمة وفلسفته الروحية.[1]

بعد أشهر، عاد شرابي وفي جعبته الدراسةُ المطلوبةُ، إلى جانب طلب انتماءٍ إلى الحزب القومي،[2] وطلبَيْ انسحاب: الأول من الجمعية السياسية الهادفة إلى توحيد الأمة العربية وبعثِ نهضتها، باعتبار أنّه أصبح مؤمنًا بوحدة سورية الطبيعية والنهوض بها... والثاني الانسحاب من شخروب ميخائيل نعيمة وفلسفتِه الروحية لأنّه بات مشدودًا إلى عرزال أنطون سعادة وفلسفته المَدْرَحِيّة.

ولم يَحْصل الانقلابُ العقائدي والفلسفي في عقل الأكاديمي الفلسطيني بالصدفة. فثمة عواملُ عدةٌ ساهمتْ في عضوية شرابي في حزب سعادة، أُشيرُ إلى اثنين منها: ١ ـ محوريةُ الثقافة في الحركة القومية الاجتماعية، واهتمامُ مسؤوليها بالمثقفين، وبخاصةٍ الشبّانُ الواعدون. ٢ ـ محوريةُ فلسطين في المبادئ الأساسية للعقيدة، ونشاطُ الحزب في الأوساط الفلسطينية. وتشاء الصّدفُ أن يكون نعمة ثابت على رأس الحزبَ في العام ١٩٤٥ الذي أَعَدَّ خلالَه شرابي الدراسةَ المطلوبةَ. وثابت أرستقراطيٌّ أنكلوساكسونيُّ اللغة، نجلُ قسطنطين ثابت مراسل صحيفة **التايمز** البريطانية في بلاد الشام، ومتخرِّجٌ من الجامعة الأميركية في أوائل الثلاثينات، ويتميّز بالكياسة والجاذبية والمعرفة العميقة بالتاريخ. أما الدكتور فايز صايغ، الذي كان يتولّى عمدتَي الثقافة والإذاعة في الحزب القومي، فهو فلسطيني من أصل سوري،[3] يتمتّع بموهبة البحث والخطابة اللذيْن قلّما اجتمعا في شخصٍ واحد وبالتساوي اجتماعَهُما في شخصِه. ومن المرجَّح أنّ ثابت وصايغ لعبا دورًا أساسيّاً في إقناع شرابي باعتناقِ عقيدةِ سعادة والانتماء إلى حزبه. أما الرأي الشائع بأنّ «كاريزما» سعادة هي التي أبعدتْه عن الجمعية العروبية وميخائيل نعيمة وقرَّبَتْه من الحزب القومي، فهو غير صحيح، بدليل أنّ سعادة كان في الأرجنتين[4] حين بدأ شرابي بإعداد دراسته وانتهى إلى الالتزام بالعقيدة والمؤسّسة الحزبية اللتيْن أَعَدَّ دراسةً مكثّفةً عنهما.

❖ ❖ ❖

تَرافَقَ اعتناقُ شرابي عقيدةَ سعادة وانضواؤُه في حزبه عامَ ١٩٤٦ مع أزمتيْن خطيرتيْن صامتتيْن. الأولى بين زعيم الحزب أنطون سعادة المقيم آنذاك في المهجر الأرجنتيني من جهة، ورئيس الحزبِ نعمة ثابت وبعض معاونيه في القيادة من جهة أخرى. والثانية بين الزعيم من جهة، وعميد الثقافة والإذاعة وبعض الذين شاركوه الرأيَ من مثقفي الحزب من جهة ثانية. وبعد عام من حياة شرابي الحزبية، انفجرت الأزمتان بُعيدَ عودة سعادة إلى الوطن.

لم تكن لشرابي معرفةٌ شخصيةٌ بسعادة بسبب اغتراب الأخير القسري في البرازيل ثم الأرجنتين طيلة تسع سنوات. ومع ذلك، وَقَفَ إلى جانبه إثرَ انفجار

١ ـ ٢ ـ **الجمر والرماد** (دار نلسن، طبعة ١٩٩٨)، ص ٨١ ـ ٨٣.

٣ ـ هو نجل القسّ عبد اللّه صايغ الذي انتقل من حمص إلى حوران ومنها إلى فلسطين، وشقيق الشاعر توفيق صايغ، والدكتوريْن يوسف وأنيس.

٤ ـ وصل سعادة إلى مطار بيروت في ٢ آذار ١٩٤٧.

الأزمتيْن ضدّ ثابت وصايغ اللذيْن كان قد أُعجبَ بهما وأَقْسَمَ اليمينَ برعايتهما. ولمّا كان للأزمتيْن الأثرُ المباشرُ والعميقُ على بواكير نتاجه الفكري، إضافةً إلى تأثُّره البالغ بسعادة واستمرار إعجابه به حتى آخر لحظةٍ من حياته، فقد رأيتُ، قبل مرافقةِ شرابي في رحلته الحزبية، الإضاءةَ على أسباب الأزمتيْن وتفجُّرهما وما نَتَجَ عنهما، الأمرُ الذي يساعد على فهم أعمقَ لنتاج شرابي في تلك المرحلة ويَكْشف سرَّ انحيازه المطْلق إلى سعادة، لا خلال المرحلة تلك فحسب، بل أيضًا في سائر مراحل حياته الحزبية التي استمرّتْ عشرَ سنوات.[1]

بعد إلغاء مذكرة التوقيف بحقّ سعادة، التفّ أعضاءُ الحزب حوله، وفي طليعتهم: هشام شرابي

الأزمة الأولى، وهي الأخطر، نتجتْ عن تخوُّف نعمة ثابت، وأسد الأشقر،[2] ومأمون أياس،[3] وغيرهم من أركان القيادة، من أن يُعيدَ سعادة النظرَ في النهج الذي اتّبعوه في غيابه. فهؤلاء كانوا قد حَصَرَوا نشاطَ الحزب في داخل لبنان، وتخلَّوْا، عمليّاً، عن أيّ نشاط في باقي كيانات سورية الطبيعية، رغم أنّهم لم يُحْدِثوا تعديلاً كتابيّاً في دستور الحزب ومبادئه. والنهج الجديد الذي تمّ الاتفاقُ عليه مع أحد أركان السلطة اللبنانية، وهو كميل شمعون، المتزوِّجُ من ابنة عمّ رئيس الحزب نعمة ثابت، كان الشرطَ الرئيسيَّ لحصول الحزب على ترخيص قانوني للعمل العلني في لبنان. وكان من ثمرات هذا النهج، الذي عُرف بـ «الواقع اللبناني،» حصولُ الحزب على رخصةٍ للجريدة السياسية اليومية، **صدى النهضة**، التي رئس تحريرَها الدكتور فايز صايغ. ومن التغييرات التي نتجتْ عن النهج الجديد تعديلُ شعار الحزب (الزوبعة) ورموزها الأربعة: الحرية، الواجب، النظام، والقوة.

الأزمة الثانية التي سارت على خطٍ موازٍ مع الأولى، وتفجَّرتْ بعد قليل من انفجار الأولى، نَتَجَتْ عن خلافٍ فلسفي عقائدي حول مقولة «الحرية» بين سعادة من جهة، وفايز صايغ الذي تضامنتْ معه قلّةٌ من مثقفي الحزب (ومنهم غسان تويني) من جهة أخرى. لم يكن الخلافُ بين فريقٍ يريد الحريةَ وثانٍ يَرْفضها، بل بين صايغ الذي يريدها وفق المفهوم **الليبرالي** ورمزه البارز آنذاك الدكتور شارل مالك (الذي كان له ضلعٌ في تحريض تلميذه صايغ على حمل رايتها)؛ وسعادة الذي حَدَّدَ الحريةَ على ضوء عقيدته القومية والاجتماعية، واشترط تناغمَها مع باقي رموز شعار الزوبعة ـ أي النظام والواجب والقوة. وتداركًا للانفجار، وحرصًا على استمرار نهج ثابت «اللبناني،» انتقل رئيسُ الحزب برفقة أسد الأشقر من بيروت إلى القاهرة التي كانت المحطَّةَ الأخيرةَ لعودة سعادة من الأرجنتين. في الظاهر، تمَّ الانتقالُ من أجل الاستقبال، ولكنّ حقيقتَه هي أنّ القياديّيْن حاولا إقناعَ زعيمهما بأن يأتي خطابُه إصلاحيّاً هادئًا وخاليًا من أيّ نقدٍ لنهج الحكم اللبناني وركنيْه بشارة الخوري ورياض الصلح، ناهيك باستمرار الالتزام بـ «الواقع اللبناني» القاضي بحصر النشاط في لبنان بعيدًا عن شؤون فلسطين وشجونها.[4]

وكان صايغ قد سبق ثابت والأشقر في الحوار المداور بواسطة غسان تويْني، الذي انتقل من بيروت إلى بوسطن لإكمال علومه في هارڤارد، حيث تولّى مسؤوليةَ ضابط الارتباط بين سعادة في الأرجنتين وقيادةِ حزبه في بيروت. والمطَّلِعُ على الرسائل التي تلقّاها تويْني من سعادة يفاجأ بمدى تأثُّر الأوّل بأستاذه في الجامعة الأميركية البيروتية شارل مارك، و«أستاذِه» في الحزب القومي فايز صايغ، خصوصًا في مقولة الحرية.[5]

كان واضحًا أنّ «خالق» الحزب القومي ومبادئه، على حدّ تعبير شرابي، مصرٌّ على العودة إلى النهج الثوري القومي الذي مارسه قبل مغادرته بيروتَ إبّان الحرب

---

١ ـ لقد اعتمدتُ المعلومةَ التي كرّرها لي شرابي أكثرَ من مرة، وهو أنّه تَرَكَ الحزبَ بعد مصرع المالكي في العام ١٩٥٥، رغم أنّ بعض رفقائه القدامى في الحزب يؤكّدون أنّه استمرّ عدة سنوات بعد ذلك. ذلك أنّ نتاجه العقائدي [كسوري قومي ـ الآداب] قد توقّف بعد ١٩٥٥

٢ ـ رئيس سابق للحزب، ونائب سابق في البرلمان اللبناني، وأديب، ومؤرِّخ.

٣ ـ من قدامى الحزب، بيروتي. له عدّة مجموعات قصصية منها: **الجذور السحرية**، و**بالرفاه والبنين**، إضافةً إلى عشرات المقالات العقائدية السياسية المنشورة في جريدة **النهضة** وغيرها من دوريات الحزب القومي.

٤ ـ كانت أخبارُ القدس ودمشق وعمّان تحتلّ موقعًا ثانويّاً في جريدة الحزب **صدى النهضة** وتُنْشَرُ كما لو أنّ العواصمَ الثلاثَ ليست مدنًا «سوريّة» مساويةً لبيروت.

٥ ـ أنظر نصّ الرسائل في كتاب **الرسائل** لسعادة، طبعة نيسان ١٩٨٠، الجزء الثالث، وبخاصة الرسالة المؤرّخة في ١٤ آب ١٩٤٦، ص ٦٤٦.

العالمية الثانية. وكان أيضًا من حقّه تنفيذُ منهجه، ليس فقط لأنّه «خالقُ» ذلك النهج، بل أيضًا لأنّ صلاحيّاته في الدستور، كزعيم للحزب، تُخوّله ذلك. ولكنّه كان متخوِّفاً من الانقسام الحزبي، نظرًا إلى نجومية ثابت وصايغ في الأوساط الحزبية وغيابِهِ (أيْ سعادة) لفترة غير قصيرة. لذلك كان همُّ الزعيم الانتصارَ في المعركة الداخلية حتى لو اضطُرّ إلى خوض معركةٍ خارجية مع السلطة اللبنانية.

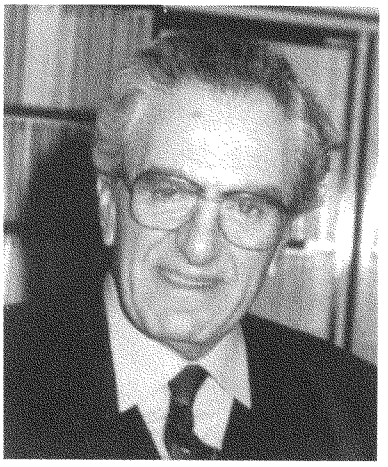

كان غسان تويني متضامنًا مع فايز صايغ، في مواجهة سعادة وكثيرين آخرين ومن بينهم شرابي

وضَمِنَ سعادة الانتصارَ في المعركتيْن الداخليتيْن بعد ساعاتٍ من عودته إلى مطار بيروت في غرّة آذار (مارس) ١٩٤٧، عَبْرَ خطاب العودة الذي ألقاه في قصر مأمون أياس. فقد شَبَّهَ وضعَ اللبنانيين في العهد الاستقلالي الأول بالمساجين الذين خَرَجوا من القواويش ولكنْ ليبقوا داخل أسوار السجن، وليس لتنشُّق نسيم الحرية في رحاب الوطن. وعلى الصعيد الفلسطيني قال سعادة في القِسْم الأخير من خطابه: «إنّ جهادَنا يستمرّ، ويجب أن تَذْكروا دائمًا أنّ فلسطين سوريّة، وأنّ هذا الجناحَ الجنوبي مهدَّدٌ تهديدًا خطيرًا جدّاً.» وختم مخاطبًا جموعَ أعضاء حزبه من المخضرمين والشباب، ومنهم شرابي الذي اشترك مع أعضاء مديرية الجامعة في استقبال سعادة[١]: «إنّ كلمتي إليكم أيُّها القوميون الاجتماعيون هي العودة إلى ساحة الجهاد.»[٢]

وفي اليوم التالي، أَصدرت السلطةُ اللبنانيةُ مذكِّرةَ توقيفٍ بحقّ الخطيب، ولكنّه رفض الإذعانَ، واعتصم في قرى الغرب (بشامون ومحيطها) والمتنِ الشمالي عدةَ أشهر، لم تنقطعْ خلالها الاتصالاتُ بين سعاده وعدد كبير من كوادر الحزب ومسؤوليه ـ ومنهم صايغ وثابت.[٣] وأخيرًا أُلغيتْ مذكِّرةُ التوقيف بلقاءٍ ودّيّ بين سعادة والمدّعي العام، وذلك نتيجةَ عامليْن هما: إصرارُ سعادة على عدم الاستسلام، وصدورُ مذكّرة التوقيف في موسم الانتخابات حيث تَحْصل التسوياتُ عبر المرشَّحين النافذين. وبصرف النظر عن مصير مذكّرة التوقيف، فإنّ تسطيرَها كان خدمةً كبرى لسعادة ـ عن غير قصد ـ من بشارة الخوري ورياض الصلح وكميل شمعون الذي كان يتولّى حقيبةَ وزارة الداخلية. فقد التفّ جميعُ أعضاء الحزب حول سعادة، وكان بينهم، بل في طليعتهم، هشام شرابي. وبهذا الالتفاف أصبح سعادة في موقع القوة المُطْلقة في معركته الداخلية. فقد ترك ثابت الحزبَ ولم يتضامنْ معه سوى مأمون أياس؛ ذلك أنّ أسد الأشقر سرعانَ ما اعتذر عبر مقالٍ أكّد فيه أنّ «العنايةَ الإلهيّة» هي التي أعادت سعادة إلى وطنه وحزبه. كذلك لم يجد فايز صايغ معه، لدى مغادرته الحزبَ، إلاّ يوسف الخال وغسّان تويني الذي عاد إلى الحزب إثر إعدام سعادة.

❖ ❖ ❖

كان واضحًا تصميمُ سعادة على تطعيم القيادة الجديدة بعناصر شابّة. لذلك كثَّفَ من لقاءاته، أثناء تواريه، بمجموعةٍ من القوميين المثقفين الشبّان الواعدين أمثال إنعام رعد وجورج عطيّة وفؤاد نجار ولبيب زويا ويوسف سلامة وهشام شرابي. وخلال اللقاءاتِ السريّةِ في المتن وقرى الغرب، والعلنيّةِ في منزل سعادة ومركز الحزب ومنطقةِ الروشة ـ المنارة، بات شرابي الأقربَ إلى زعيم الحزب.[٤] وإذا كان من غير الواضح سببُ تمييز سعادة لشرابي عن الآخرين، رغم إيمان هولاء بالعقيدة وولائهم لزعيم الحزبِ ومواهبِهم الفكريةِ الواعدة، فإنّ إعجاب شرابي بسعادة انطلق من معطيَيْن: ١ ـ شجاعة سعادة ومتانة أعصابه؛ ٢ ـ اهتمامه بالثقافة والمثقفين.

بالنسبة إلى المعطى الأول، يروي شرابي ما شاهده وسمعه في أحد المنازل الشويرية حيث كان يقيم سعادة أحيانًا خلال مذكِّرة التوقيف. فقد أُنذِرَ مَنْ في المنزل بأنّ قوى الأمن تتّجه نحو ضهور الشوير[٥] لاعتقال سعادة. فورًا عمّ الاستنفارُ والاضطرابُ أيضًا، وبات الجميعُ على استعداد لمغادرة المنزل ومرافقةِ سعادة إلى مكانٍ آخر. ولكنّ سعادة تأخّر في مغادرة غرفته حيث كان يستريح بعد الغداء. دخل شرابي عليه، فوجده يَشْرب القهوة ويقرأ كتابًا. وحين لاحظ سعادة

١ ـ **الجمر والرماد**، ص ٨٦.

٢ ـ أنطون سعادة، **الآثار الكاملة**، ج ١٤، ص ٦٠.

٣ ـ مقابلة مع أحد مسؤولي الحزب المحامي عبد الله قبرصي، الذي سعى إلى جمع ثابت بسعادة في محاولةٍ أخيرةٍ لإيجاد حلّ يبقي صديقَه ثابت داخل صفوف الحزب.

٤ ـ مقابلة مع رئيسة المجلس الأعلى السابقة، هيام نصر الله محسن.

٥ ـ مسقط رأس أنطون سعادة، وأحد معاقل حزبه.

القلقَ على وجه شرابي قال له بالعاميّة الشويرية: «بيظهر بعدك مش معوّد عالكَبْسات،» ثم راح يناقشه في مضمون الكتاب الذي يقرأه، ويرتشف قهوتَه، بهدوء تامٍّ لا أثر للتصنُّع فيه.[١]

أما اهتمام سعادة بالثقافة وفرسانها، والذي تجلّى في معظم لقاءاته بشرابي، فربما يكون العاملَ الأقوى في انجذابه نحوه وإعجابه به، أسوةً بالعديد من المفكّرين والأدباء والفنانين أمثال فخري معلوف،[٢] وجورج حكيم،[٣] وفؤاد سليمان،[٤] وتوفيق الباشا،[٥] ومصطفى فرّوخ،[٦] وزكي ناصيف،[٧] وصليبا الدويهي،[٨] والشاعر سعيد عقل،[٩] ومحمد يوسف حمُّود،[١٠] ويوسف الخال،[١١] وأدونيس، ويوسف الحويّك.[١٢]

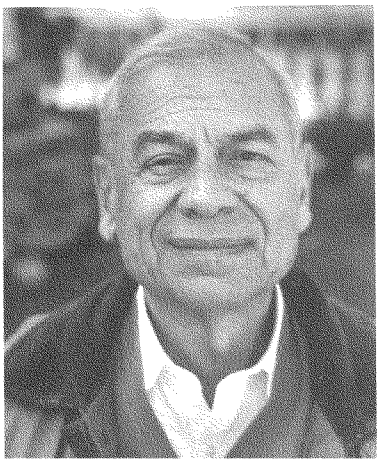

عُيّن شرابي وكيلاً لعمدة الثقافة في الحزب القومي وهو لم يتجاوز الثانية والعشرين!

وهكذا، ما إنْ أُلغيتْ مذكرةُ التوقيف، وحُسم أمرُ الدكتور فايز صايغ، حتى صَدَرَ مرسومٌ يَقْضي بتعيين هشام شرابي وكيلاً لعمدة الثقافة في الحزب، في حين بقي منصب العميد (الوزير) شاغرًا. وهذا يعني أنّ شرابي مارَس، عمليّاً، صلاحياتِ صايغ وهو لم يتجاوز الثانيةَ والعشرين. والمسؤولية تلك كانت الأرفعَ التي تولاّها طيلة حياته الحزبية. وبالطبع، كان يمكن أن تُسْنَدَ إليه مسؤولياتٌ أرفعَ، لو أنّه عاش في الوطن، وكانت له رغبةٌ في ذلك، خصوصًا وأنّ جميعَ أركان القيادة الحزبية، وبخاصةٍ رئيسُ الحزب جورج عبد المسيح، كانوا إيجابيين حياله ويَعْتبرونه مَرْجعًا في شرح فلسفة سعادة الذي غاب قبل أن يَضَعَ كتابًا حولها. وخلال تولّيه مسؤوليةَ عمدة الثقافة، أَشرفَ على المجلةِ الفكرية ـ العقائدية التي استؤنف إصدارُها بعد توقُّفها القسري بفعل انفصال صايغ عن الحزب، وشارك في تحريرها وكتابةِ افتتاحياتها.

صدرَ العددُ الأول من المجلة الشهرية **النظام الجديد** في آذار (مارس) ١٩٤٨. وتحت عنوان «إلى القارئ الرفيق وغير الرفيق» وبتوقيع «عمدة الثقافة والفنون الجميلة،» ركّز شرابي في افتتاحية العدد الأول على أمريْن: أولاً، مسؤولية «المنظّمة القومية الاجتماعية في عملية التثقيف،» لأنّ الثقافة «شيءٌ مجتمعيٌّ عامّ، لا أمرٌ شخصيّ فرديّ خصوصيّ.» ثانيًا: أنّ رئيس تحرير المجلة أو «المُشْرف الأعلى على نهجها هو الزعيم نفسه.»[١٣] وتُعتبر هذه الافتتاحية ردّاً مداورًا على الدكتور صايغ الذي كرّرَ التأكيدَ في افتتاحياته أنّ **العميد** هو المسؤول عن المجلة، التي هي مطبوعةٌ مستقلّةٌ عن القيادة الحزبية ورئيسِها ـ وهذا الأمر كان أحدَ عناصر خلاف صايغ مع سعادة.

وفي عدد نيسان (أبريل) ١٩٤٩، نَشَرَ شرابي الكلمةَ التي ألقاها في «الحلقة الثقافية،»[١٤] وقد تُوِّجتْ كالعادة بتوقيع «وكيل عميد الثقافة والفنون الجميلة» بدلاً من اسمه الصريح. تناول الكاتبُ في دراسته المكثّفة «فلسفةَ القيم في المدرسة المَدْرحيّة،» وقد افتتح بها نتاجَه الكثيفَ في شرح فلسفة سعادة. وأكّد في سياق البحث أنّ الفلسفة المدرحيّة[١٥] «تتناول حياةَ الإنسان في واقعه الاجتماعي من

---

١ ـ **الجمر والرماد**، ص ٩٣.

٢ ـ عم أمين معلوف، ومن قدامى الحزب، وأبرزُ مفكّريه في الثلاثينات.

٣ ـ وزير خارجية سابق في لبنان، تولّى مسؤولية رفيعة في الحزب القومي إبّان تأسيسه في الثلاثينات.

٤ ـ أديب معروف، تولّى مسؤوليةً في عمدة الثقافة في الحزب القومي.

٥ ـ موسيقار بيروتي معروف، ووالد العازف العالمي أمين الباشا.

٦ ـ كتب عدّة مقالات حول الفن في باكورة جرائد الحزب **النهضة**، ورَسَمَ العرزالَ الذي كان سعادة يمضي فيه عطلةَ الصيف.

٧ ـ لحّن نشيدَ الحزب «سورية لكِ السلام» الذي نَظَمه سعادة.

٨ ـ رسّام من زعرتا لم ينتمِ إلى الحزب، واكتفى بصداقة زعيمه.

٩ ـ انتمى إلى الحزب في العام ١٩٣٥ . نَظَمَ نشيدًا حزبيّاً بعنوان «سورية فوق الجميع.»

١٠ ـ صاحب نشيدَي «الشجرة» و«المقاومة.» من مؤلّفاته: **ذلك الليل الطويل**.

١١ ـ مؤسِّس «خميس شعر،» ومجلّتَيْ **شعر** و**أدب**.

١٢ ـ نحّات، وابن أخي البطريرك إلياس الحويّك. له تمثالٌ نصفيٌّ لسعادة موجودٌ في مكتبة النائب السابق غسان الأشقر.

١٣ ـ **النظام الجديد**، آذار ١٩٤٨، ص ٢.

١٤ ـ مؤسَّسة حزبية أسّسها فخري معلوف باسم «الندوة الثقافية،» وتقتصر العضويةُ فيها على مفكّري الحزب وأدبائه.

١٥ ـ مصطلحٌ نَحَتَه سعادة من كلمتيْ «المادة» و«الروح.»

نواحيها المتعدِّدة وتَرْتكز على أسس فكرية وعملية ذاتِ قواعدَ واضحةٍ، بدون أن تَنْزلق في نظرتها الشاملة إلى موقفٍ مقرَّر تجاه المشاكل الغيبية. فالسلبية المبنيّةُ عليها الفلسفةُ الماديةُ لتعلُّقها بالمرتكزات الحسّية في حياة الإنسان الاجتماعية، والسلبيةُ المماثلةُ المبنيّةُ عليها الفلسفةُ الروحيةُ في جعلها المرتكزاتِ الماديةَ وسائلَ لما هو فوقَ المادة ووراءها، تذوب في إيجابيةٍ موحِّدةٍ بين الاتجاهيْن المتناقضيْن في مُنْدَمَج (synthesis) يعلو الاثنين في تحديد علاقةِ ما هو روحيٌّ في حياة الإنسان ـ المجتمع وما هو ماديّ، وربطهما ضمنَ اتجاهٍ قيميٍّ متولِّدٍ من الخلق ـ المتمخِّضة به الروحُ السوريةُ اليومَ.»

مقالات شرابي في ربيع ١٩٤٩ كانت ردّاً مداورًا على فايز صايغ وأفكاره التي نالت رضى شارل مالك وأغضبتْ سعادة

استغرق نتاجُ سعادة معظمَ صفحات الأعداد القليلة التي صدرتْ من مجلة **النظام الجديد**. وملأ الصفحاتِ الباقيةَ مقالاتٌ ودراساتُ عددٍ قليلٍ من مفكِّري الحزب القومي وأدبائه، أمثالِ المؤرِّخ يوسف صوراتي ومعروف صعب وجورج مصروعة[١] من المخضرمين، ولبيب زويا[٢] وجورج عطية[٣] وإنعام رعد ووديع الأشقر[٤] وكامل المقدم[٥] وعلي أحمد سعيد (أدونيس) من الأعضاء الجدد.[٦]

❖ ❖ ❖

في ذلك العام (١٩٤٨)، وتحديدًا في غرّة نيسان، أَصْدر الحزبُ القومي جريدةً جديدةً يوميةً باسم **الجيل الجديد** بدلاً من **صدى النهضة** التي أَلْغت السلطةُ اللبنانيةُ امتيازَها حين سَطّرتْ مذكّرةَ التوقيف بحقّ زعيم الحزب. والاسم الذي أَطْلقه سعادة على جريدة الحزب الثالثة، بعد **النهضة** و**صدى النهضة**، لم يَقْصد به فقط التمييزَ بين أعضاء حزبه وأعضاءِ الأحزاب الطائفية، بل أيضًا بين الكوادر الشابّة أو الجديدة أمثال هشام شرابي، وبين بعض الكوادر المخضرمة كالدكتور فايز صايغ ونعمة ثابت. وسرعان ما ظَهَرتْ سلسلةُ مقالاتٍ فكرية عقائدية بقلم «زَيْنون،» باستثناء المقال الأول الموقَّع بحرفَيْ (هـ. ش). وقد انتقلتْ حلقاتُها، بعد الحلقة الرابعة، من الصفحات الداخلية، إلى الصفحة الأولى. وما كان يُمْكن أن تحتلّ كتاباتُ «زينون،» وهو الاسمُ المستعارُ لهشام شرابي، واجهةَ صحيفة الحزب، لو لم يكن سعادة مُشْرِفًا على تحريرها. فقد كان شرابي في الحزب قبل عودة سعادة بسنة، ولم يُنْشرْ له في **صدى النهضة** سوى ثلاث مقالات في الصفحات الداخلية، وأحدُها مترجَم عن الإنكليزية. صحيح أنّ شرابي كان وكيلاً لعمدة الثقافة حين صدور الجريدة الجديدة، ولكنّ المطبوعة السياسية تكون عادةً بعهدة عمدة الإذاعة. ولعلّ أحد أسرار إغراق فايز صايغ لجريدة **صدى النهضة** بنتاجه الكثيف أنّه كان عميدًا للإذاعة.

طغى المضمونُ الفلسفي وعلمُ الاجتماع على معظم حلقات هذه السلسلة التي بدأتْ من العدد ٢١ الصادر في ٣ أيار (مايو) ١٩٤٩، وانتهى في ٩ حزيران (يونيو) من العام نفسه، أيْ قبل شهر من إعدام سعادة.[٧] ولكنّ نهج علم الاجتماع والفلسفة قد امتزج بالإيمان العقائدي والولاء لسعادة، امتزاجَ العقلِ بالعاطفة، أو النهجِ العلمي بالنهج الحزبي. وصيغت المقالاتُ بأسلوبٍ أدبيّ جميلٍ

---

١ ـ أديب ومؤرِّخ. من مؤلَّفاته **هنيبعل**، **وابن زيكار**، **وضحيّتان**.

٢ ـ درّس في إحدى الجامعات في الولايات المتحدة. نشر كتابًا بالإنكليزية عن سعادة والحزب، ونقله إلى العربية الدكتور يوسف شويري.

٣ ـ تولّى رئاسةَ قسم الشرق الأدنى في مكتبة الكونغرس. من مؤلَّفاته: **من حضارتنا**.

٤ ـ كاتب وصحافي. نَشَرَ معظمَ نتاجه في دوريات الحزب.

٥ ـ كاتب وصحافي. اقتصر نتاجُه على المواضيع الاقتصادية.

٦ ـ وعلى ذِكْر أدونيس، فقد نَشَرَ في عدد حزيران ١٩٤٨ قصيدةً طويلةً بعنوان «قافلة المجد» أهداها «إلى زعيمي الذي منذ عرفتُه، عرفتُ قيمَ الحياة: الحقَّ والخيرَ والجمالَ.» وتُوِّجت القصيدةُ بمقدِّمة جاء فيها أنّ «الرفيق علي أحمد سعيد (محافظة اللاذقية) شاعرٌ مفطورٌ موهوب تَشْهدُ بموهبته القصيدةُ العاليةُ الروحِ التي نَنْشرها له في هذا العدد. وإذا كانت 'قافلةُ المجد' تدلّ على شاعرية الرفيق علي سعيد، فهي تدلُّ على ما يُنْتظر منه في المستقبل؛ إذ هي تدلّ على قوة الشاعرية المبتدئة، لا على حدودها المنتهية. فالرفيق لا يزال في نحو الثامنةَ عشرةَ من عمره، وفي دوْر طلب العلم والأدب. فالأمل بنموّ شاعريّته القوية كبيرٌ.» ومن أسلوب المقدّمة يُتأكّد أنّ كاتبَها هو سعادة نفسُه، الذي قيل إنّه هو الذي أَطْلق على الشاعر لقب «أدونيس» لحظةَ التقاه في جولته التي قام بها في الجمهورية السورية. والواقع أنّ سعادة **لم** يطلقْ هذا اللقب على علي أحمد سعيد، إذا افترضْنا أنّه التقى به خلال جولته التي شملتْ مدينةَ اللاذقية وجوارها. ذلك أنّ قصيدة «قافلة المجد،» المذيَّلةَ باسم صاحبها الصريح ولقبه، نُشرتْ في عدد المجلة الصادر في حزيران ١٩٤٧؛ في حين أنّ جولة سعادة في الجمهورية السورية بدأتْ في الثالث من تشرين الثاني ١٩٤٨ (راجع: الياس جرجي قنيزح، **مآثر من سعادة**، طبعة ١٩٨٩، ص ١٦٢ . والمؤلِّف رافَقَ سعادة في جولته، وكان عميدًا للداخلية في قيادة الحزب).

٧ ـ أُعدم سعادة في ٨ تموز ١٩٤٩ .

لم يَغِبْ عن نتاج شرابي طيلة حياته، وشَكَّلَ مضمونُ معظمها ردّاً مداورًا على الدكتور صايغ الذي شَدَّدَ على حقيقة الإنسان الفرد وعلى سائر المفاهيم الفكرية العقائدية التي نالتْ رضى شارل مالك وأغضبتْ سعادة. وفي هذا الصدد يؤكّد شرابي في مقال «قواعد الانطلاق في المدرسة المَدْرَحيّة» أنّه «لا يُمْكن أن يكون للفرد جوهرٌ حقيقيٌّ خارجَ جوهر أمّته النفسي الاجتماعي. إنّ تعلُّقنا بحقيقة فردية منعزلة، بُنيتْ على ما نظنُّه مرجعًا فرْديّاً أخيرًا مستمدّاً من حرية الفرد وإرادته الخالية من كلّ عاملٍ خارجَ وعيه العقلي، هو تعلُّقٌ أساسُه وهمٌ خاطئ.»[1]

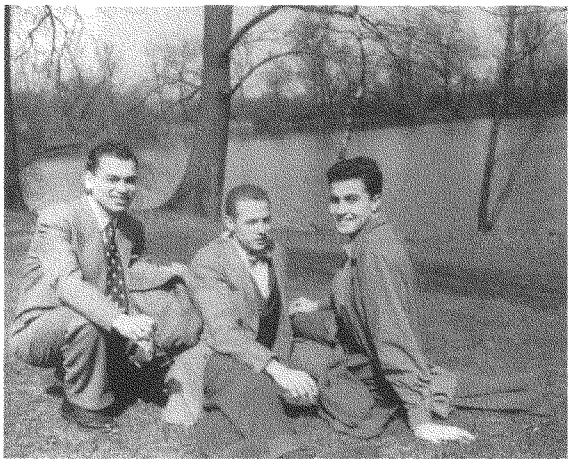

يوسف سلامة (في الوسط) كان مع سعادة وشرابي (إلى اليسار) خارجين من مطبعة «فضّول» التي أحرقها الكتائبيون

وكان شرابي في تعريفه لهوية زاويته اليومية المتوّجة بعنوانٍ دائم «حياتُنا الجديدة» أكّد أنّها «زاويةٌ تعبِّر عن أفكار ومشاعر أحدِ أبناء الجيل الجديد. وروحُ هذا التعبير الموحّد الشامل هي نتيجةُ فعلِ رسالةِ سعادة القومية الاجتماعية، التي خَلَقَتْ من الفردِ، الخارج عن محور نفسيّته الصحيحة، فردًا اجتماعيّاً، غدا ذا شخصيةٍ ونفسيةٍ واضحةٍ مستمدّةٍ من وضوح شخصيةِ ونفسيةِ المجتمع الجديد الذي هو جزءٌ منه.»[2]

❖ ❖ ❖

كان شرابي مع سعادة في مطبعة فضّول، حيث كانت تُطبع جريدةُ **الجيل الجديد**. وتقع المطبعة في محلّة الجمّيزة، المحسوبةِ على حزب الكتائب. فجأةً علَتِ الهتافاتُ المعاديةُ لسعادة وحزبه، وكان مصدرَها عددٌ كبيرٌ من الكتائبيّين بقيادة الشيخ بيار الجميّل وعضويةِ أحدِ مسؤولي الحزب التاريخيين جوزيف أبو خليل. بعد الفراغ من كتابة الافتتاحية، غادر سعادة المطبعةَ بصحبة عدد قليلٍ من كوادر الحزب، وهم يوسف سلامة،[3] وعصام المحايري، وهشام شرابي، إضافةً إلى الحارس المرافق، من غير أن يَعْترضَ سبيلَهم أحد. ولكنْ، ما إنْ وصلوا إلى ساحة البرج التي تَبْعد حوالي الكيلومتر عن مقهى «القزاز» الشهير، حتى أَحْرق الكتائبيون المطبعةَ وجَرحوا بعضَ العاملين فيها.[4] وبدلاً من أن تلاحقَ السلطةُ المهاجمين، اعتقلتْ خلال يوميْن أكثرَ من خمسماية من قادة الحزب القومي وكوادره، ولكنّها فشلتْ في اعتقال سعادة وشرابي: فقد تمكّن سعادة من مغادرة الأراضي اللبنانية والوصول إلى دمشق؛ ونجح شرابي في الوصول إلى عمّان عبر الأراضي السورية، ربما لأنّه لم يوقِّعْ مقالاتِه باسمه الصريح.

وفي العاصمة الأردنية، قرأ شرابي في إحدى الصحف خبرَ تسليم السلطة في دمشق لسعادة إلى نظيرتها في بيروت، التي أَجْرَتْ له محاكمةً صوريةً سريعةً وأعدمتْه. فحمل حقيبةَ السفر عائدًا إلى الولايات المتحدة، وقد غمره اليأسُ والحزنُ بسبب إعدام القائد الذي وَفَّر له الأملَ واعتبره مَثَلَه الأعلى وقدوتَه.[5] ومن أغربِ ما جرى معه فورَ وصوله إلى نيويورك أنّ الذي استضافه في منزله، وأحاطه بعنايةٍ أبويةٍ، لم يكن سوى الدكتور فايز صايغ![6] ولكنّ عواملَ ثلاثة ساهمتْ في عودة الروح الحزبية إلى شرابي وأحلّت الأملَ من جديد مكانَ الألم. فقد قام بعضُ الضبّاط بانقلابٍ ناجحٍ في دمشق بعد أقلّ من شهر وأسبوعيْن، ونَفَّذَ الضابطُ القوميُّ فضل اللّه أبو منصور حُكْمَ الإعدام برئيس الدولة حسني الزعيم، ورئيسِ الحكومة محسن البرازي.[7] ونتيجة الانقلاب الجديد الموالي للحزب القومي أو غير المعادي له، انتقلتْ قيادةُ الحزب إلى دمشق وانتُخب جورج عبد المسيح، المحكومُ بالإعدام في بيروت، رئيسًا. ومن القرارات الأولى التي اتّخذتْها قيادةُ الحزب الجديدة إعادةُ إصدار جريدة يومية باسم **الجيل الجديد**. وإمعانًا منها في تحدّي السلطة اللبنانية التي عطّلت **الجيل الجديد** البيروتية، أَوْعزتْ قيادةُ الحزب إلى رئاسة التحرير بأن تضمّن ترويسةَ العدد الأول من جريدة الحزب الدمشقية الرقم ٥٢، باعتبار أنّ العدد الأخير من الجريدة البيروتية قد حمل الرقم ٥١!

---

١ ـ **الجيل الجديد**، ٢ حزيران ١٩٤٩.

٢ ـ **الجيل الجديد**، ٣ أيار ١٩٤٩.

٣ ـ أديب وباحث. من مؤلّفاته: **حدثني ياء سين قال**.

٤ ـ اعترف جوزيف أبو خليل بالاعتداء، وذلك في إحدى حلقات مذكّراته المنشورة في جريدة **السفير** بتاريخ ١٢ آب ١٩٩١.

٥ ـ **الجمر والرماد**، ص ٢٧٨.

٦ ـ من مقابلة مع هشام شرابي. أنظرْ أيضًا: هشام شرابي، **عكّا وبيروت وواشنطن**، منشورات الجمل، كولونيا، ط ١٩٩٤، ص ٣٢.

٧ ـ فضل اللّه أبو منصور، **أعاصير دمشق**، ص ٧٦.

وسرعان ما استعاد شرابي عافيتَه واستأنف تدبيجَ مقالاته ودراساته، التي تصدّرت الصفحةَ الأولى وتُوِّجتْ بتوقيعه المستعار «زينون،» وأحيانًا باسمه الصريح. بل إنّ باكورة صحف الحزب القومي في دمشق أعادت نشرَ بعض مقالات شرابي التي سبق ونشرتْها **الجيل الجديد** البيروتية.

ولكنّ أهمّ ما نشره في تلك المرحلة مقالةٌ طويلةٌ توزّعتْ على ١٣ حلقة بعنوان «سعادة حيٌّ بيننا،» ومحاضرةٌ بعنوان «الفلسفة القومية الاجتماعية.» ولمّا كان الهدف من المقالة المساهمة في استنهاض الجسم الحزبي بعد الضربة القاسية التي أَحدَثَها إعدامُ سعادة، فقد حاول شرابي إقناعَ قرّائه بأنّ سعادة ليس مجرَّدَ شخص، بل عقيدةٌ وقدوة. وحرص الكاتب على توظيف ما قرأه لسعادة، وما سَمِعَه منه، في كلِّ حلقة من السلسلة الطويلة. لذلك كان تأثيرُ تلك الحلقات بالغًا، نظرًا إلى معرفة أعضاء الحزب ومسؤوليه أنّ الكاتب حائزٌ ثقةَ سعادة، خصوصًا على المستويين المناقبي والفكري.

❖ ❖ ❖

ومن شيكاغو حيث تابَعَ شرابي تحصيلَه العلمي ونال شهادةَ الدكتوراه المعنونة: «فلسفة العلاقات الثقافية في القرون الوسطى بين أوروبا اللاتينية والعالمَيْن الإسلامي والبيزنطي،» ومن واشنطن دي سي حيث تُرْسم سياسةُ الولايات المتحدة حيال الشرق الأدنى وبخاصةٍ فلسطين، اشترك شرابي مع رفيقه في نيويورك يوسف سلامة في مراسلة **الجيل الجديد**، ثم **البناء**، الدمشقيتيْن.[١] وفي حين لم يتقاضَ الأديب الفَكِه سلامة مكافأةً ماليةً لقاءَ مراسلته لأنّ وضعه المالي جيِّد بفعل إدارته لفرع بنك انترا في نيويورك، فإنّ قيادة الحزب قَرّرتْ دفعَ مكافأة شهرية لشرابي بسبب وضعه المادي السيِّئ. ولكنّ المكافأة المالية، مهما جزلتْ، تبقى دون الجهد الذي بذله شرابي في مقابلاته مع بعض صانعي القرار في أميركا، إضافةً إلى الأخبار والتحقيقات التحليلية السياسية التي زَوَّدَ بها جريدةَ حزبه؛ فكيف والمكافأة كانت رمزية؟! كانت التغطيةُ كثيفةً، وحفلتْ بتكرار السَّبق الصحفي بالمقارنة مع أبرز صحف بيروت والقاهرة ودمشق. ولما كانت نكبةُ فلسطين في ذروتها، فقد ركّز المراسلُ على سياسة البيت الأبيض الداعمة لإسرائيل بلا حدود. ولم يكن خطابيّاً ومعمِّمًا في تحليلاته، بل كان دقيقًا وموضوعيّاً وناقلاً للأخبار من غير رُتُوش. ومن ميِّزات رسائله الخاصة بالبيت الأبيض ومعاونيه، التحليلُ المبنيُّ على المعلومات والنهج العلمي، والذي يَستشرف سياسةَ واشنطن ومعدّل تحيُّزها إلى إسرائيل. وعلى سبيل المثال، فقد توقّع الكثيرون، إثر فوز آيزنهاور، «أنْ تنصرف الولاياتُ المتحدة إلى شؤونها الداخلية.» ولكنّ شرابي أكّد أنّ «عودة الولايات المتحدة إلى فردوس العزلة، كما يصوِّره بعضُ دعاة العزلة هنا، أمرٌ فات أوانُه وانتهى عهدُه حتمًا.»[٢] وكان شرابي مصيبًا في استشرافه، بدليل «مشروع آيزنهاور،» وضغطِ آيزنهاور على أبطال العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، الأمر الذي اضطرّهم إلى الانسحاب، ووَفَّرَ انتصارًا سياسيّاً للرئيس المصري جمال عبد الناصر.

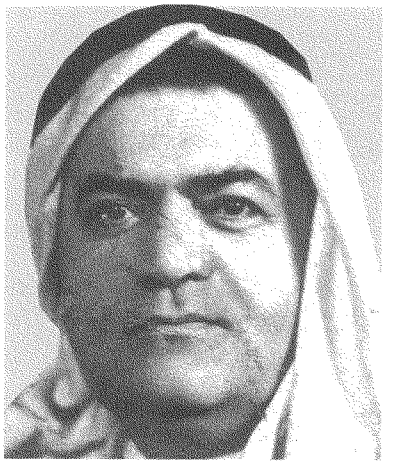

في أواخر ١٩٥١ أصدر شرابي مع يوسف سلامة مجلة بالإنكليزية، ساهم في تحريرها الأديب سعيد تقي الدين

ولم يَقْتصر «احترافُ» شرابي لمهنة المتاعب الجذّابة على كتابة التحقيقات والمقالات بالعربية؛ بل هو أصدر مجلةً بالإنكليزية بالتعاون مع يوسف سلامة، وبتمويل من حزبهما.[٣] ظهرت المجلةُ في أواخر العام ١٩٥١، وصَدرتْ شهريّاً بحجمٍ صغيرٍ وحُلّةٍ متواضعةٍ لجهة الورق وغيابِ الألوان وقلةِ عدد الصفحات بالنسبة إلى دورية شهرية. وتُوِّجت ترويسةُ غلافها بعنوانٍ ماراتوني: Syrian Review of Arab World Affairs وساهم في تحريرها عددٌ قليلٌ من المحرِّرين المتطوّعين المتبرِّعين أمثال سعيد تقي الدين، إضافةً إلى شرابي وسلامة. لكنّها لم تعمِّر أكثرَ من عام. وكان شرابي مُقِلاً في تحرير المقالات والدراسات، إذ لم يَنْشر في أعدادها الدزينةِ سوى موضوعيْن: في العدد الثالث الصادر في شباط (فبراير) ١٩٥٢، والخامس الصادر في نيسان (أبريل) من العام نفسه. وقد تناول في الموضوع الأول «الشيوعية في الشرق الأوسط» بمنهج نقدي متناغم مع نهج عقيدته وحزبه الرافضِ للماركسية وأنظمتها السياسية. ومنهجُه في ذلك الوقت حيال الشيوعية يختلف عن الذي اتَّبعه فيما بعد، حيث أصبح مؤمنًا ببعض المبادئ الماركسية. كذلك كان حالُه في مراسلاته لجريدة **البناء**: فعلى صعيد المضمون، التزم بنهج حزبه العقائدي ـ السياسي، إذ وضع واشنطن وموسكو في سلّةٍ واحدة، ورَفَضَ سياستَهما إزاء المسألة الفلسطينية، وتمحورتْ معظمُ أخباره وتحقيقاته على سورية الطبيعية التي أُسِّسَ حزبُه على هدف توحيدها

---

١ ـ مقابلة مع عميد الإذاعة ورئيس تحرير **الجيل الجديد** و**البناء**، عصام المحايري.

٢ ـ **البناء**، ٢٩ كانون الثاني ١٩٥٣.

٣ ـ مقابلة مع هشام شرابي.

وبعثِ نهضتها قبل ربطها بجبهةٍ مع سائر «أُمَم» العالم العربي. وبالنسبة إلى الشكل، فقد تداول بالمصطلحات التي استعمَلَها سعادة، من مثل «أميركانيا» بدلاً من أميركا، أو إطلاقه مصطلحَ «الأمة» على سورية الطبيعية، وإحلاله مصطلحَ «العالم العربي» مكانَ «الأمة العربية.» ناهيك أنّه لم يتداولْ مصطلحَيْ «الوطنية» و«القومية» كما يجري تداولُهما اليوم حتى من بعض مثقفي الحزب القومي الذين يعرّفون «القومية» بأنّها انتماءُ الفرد إلى أمّته، ويعرّفون «الوطنية» بأنّها انتماؤه إلى أحد كياناتها الذي وُلِدَ وعاش فيه. فالوطنية لدى شرابي هي انتماءُ الإنسان إلى الوطن برمّته، فيما القومية تَشْمل الانتماءَ إلى الأمة أو المتّحَدِ الأكمل والوطن أي الجغرافيا التي تعيش الأمةُ على تربتها وتستظلّ بيئتها. وشرابي تبنّى تحديدَ القومية والوطنية الوارد في كتاب **نشوء الأمم** لسعادة.

❖ ❖ ❖

في أواخر العام ١٩٥٣، عاد شرابي إلى بيروت، وبقي فيها حتى نهاية أواخر العام التالي. خلال ذلك، انتَخَبَ المجلسُ الأعلى في الحزب القومي عصام المحايري رئيسًا جديدًا للحزب، بدلاً من جورج عبد المسيح الذي قُبِلت استقالتُه. ولكنّ الرئيس الجديد استقال بعد شهر من انتخابه تحت ضغط عدد من كوادر الحزب الموالين للرئيس المستقيل، وبتحريضٍ مُداورٍ منه.[١] وخوفًا من حدوثِ انشقاق في الحزب، اضطُرّ المجلسُ الأعلى (الذي كان يضمّ جولييت المير، زوجةَ سعادة) إلى إعادة انتخاب عبد المسيح، فأَحْدَثَ ذلك بلبلةً في الجسم الحزبي. وباعتبار أنّ الحزب عقائديٌّ حيث للثقافة حضورٌ قوي، فقد اقترح أدونيس معالجةَ تداعيات الأزمة عبر إلقاء عدة محاضرات تتناول العقيدةَ ومرتكزاتها الفلسفية.[٢]

افتَتَح سلسلةَ المحاضرات هشام شرابي بمحاضرةٍ ألقى فيها الضوءَ على اجتماعية فلسفة سعادة وعقلانيّتها ومناقبيّتها وعدم تناولها الشؤونَ الماورائية، إضافةً إلى اعتباره المبادئَ المرتكِزةَ عليها «قواعدَ انطلاقٍ.» واتّسمت المحاضرةُ بالمنهج العلمي الخالي من الخطابية والرومنسية. ونظرًا إلى أهميّتها، فقد نَشَرَتْها **البناء** الدمشقية، وأَصْدرتْها «دارُ الجيل الجديد» التابعةُ للحزب في كرّاس مستقل.[٣]

بعد أن قرأ شرابي قصيدة «دليلة» لأدونيس كتب «أنّ كُلَّ من قَرأ قصيدتَكَ القومية أدرك أنّ تعاليم سعادة... قد بدأتْ تفعل»

وعلى ذِكْر أدونيس الذي كان له حضور أدبي وصحافي كبير في الحزب وجريدته، فقد أَصْدر في أوائل الخمسينات ملحمةً شعريةً بعنوان **دليلة**، وأهدى نسخةً منها إلى شرابي. أُعجب الأخيرُ بشعر أدونيس في ملحمته، وبَعَثَ إليه برسالة، ثم تلقّى منه جوابًا، ونُشرت الرسالتان في **الجيل الجديد** بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٠، وقد تَوَّجهما قلمُ التحرير بمقدِّمةٍ برّر فيها نشرَهما «لما فيهما من وعي وفهمٍ لنظرة الحركة السورية القومية الاجتماعية إلى الأدب والفن، الآخذةِ في بعثِ أدبٍ جديدٍ، أدبِ نهضةٍ، أدبِ حياة.»

قال شرابي في سياق رسالته مخاطبًا أدونيس: «إنّه لمن حظِّنا الجيِّد أن يكون **الصراع الفكري** [لسعادة] في حوزتنا، وبين أيدي المفكّرين والفنانين والشعراء منّا. ففي هذا الكتاب الصغير وَضَع لنا سعادة أعمقَ وأدقَّ شرح لقضية الفنّ والأدب والفلسفة في نهضة الحياة الجديدة.» وأضاف: «وكلُّ مَنْ قرأ قصيدتَك القوميةَ أَدْرَكَ، كما أَدْرَكت، أنّ تعاليمَ سعادة الأدبية والفنية قد بدأتْ تَفْعل وتسري في العروق والقلوب.» وخَتَمَ مؤكّدًا أنّ «التوفيق الذي صاحب أدونيس [في **دليلة**] سيَدْفعه إلى مَراقٍ من التجديد يصبح فيها نسرًا محلِّقًا.» وبالمقابل، استهلّ أدونيس رسالتَه الجوابية شاكرًا إعجابَ شرابي بـ **دليلة**، ومتمنّيًا لو أنّه ضَمَّنَ رسالتَه «نقدًا وتوجيهًا،» ومعترفًا بأنّ ملحمته هي «دون المستوى الذي ترتفع الحركةُ بالأدب إليه.» أضاف «إذا كنتُ آسفًا يا رفيقي لشيء في حياتي، فلأنّ القَدَرَ لم يُتِحْ لي التتلمذَ على يد المعلِّم الخالد. ذلك أنّ سعادة رائعةٌ فريدةٌ يتقطّع الزمنُ عندها حبّاتٍ لينتظم زمنًا جديدًا لم يتفتّحْ جفنُ التاريخ على مثيله من قبل.» وأدونيس هنا يشير إلى أمريْن هما: تتلمُذُ شرابي على يد سعادة، ونفيُه لما أُشيع في الخمسينات من أنّه هو أيضًا عَرَفَ زعيمَ الحزب عن قربٍ ولَقَّبه بـ «أدونيس.»

❖ ❖ ❖

أخيرًا، عاد شرابي إلى الولايات المتحدة في أواخر ١٩٥٤، والحزبُ القوميُّ في دمشق يعاني مضايقاتٍ سياسيةً من بعض العسكريين النافذين والأحزابِ ذاتِ

---

١ ـ كان الباحث سليم سعدو سالم أحدَ الذين اقتحموا مركزَ الحزب وأَجبروا أعضاءَ المجلس الأعلى على إعادة انتخاب جورج عبد المسيح بقوة السلاح. وقد روى وقائعَ العملية في جريدة **الديار** بتاريخ ١٩ تشرين الثاني ٢٠٠٥.

٢ ـ إنعام رعد، **الكلمات الأخيرة**، آذار ٢٠٠٢، ص ٧٥.

٣ ـ لديّ نسخة من الكراس تفيد أنّه صدر في آذار ١٩٥٤.

الحضور في البرلمان والجيش معًا، وبخاصة عبد الحميد السرّاج رئيس شعبة المخابرات، والحزب الشيوعي بقيادة خالد بكداش. وبُعيْد وصوله إلى واشنطن، التقى بالدكتور شارل مالك، حيث جرى تداولٌ حول مدى التغلغل الشيوعي في دمشق، وهو تغلغل كان يقلق واشنطن. وخلال اللقاء، اقترح مالك، المعروفُ بتعاطفه مع سياسة البيت الأبيض وعلاقاتِه المميّزة مع بعض المسؤولين الأميركيين، أن يتمّ تعاونٌ بين الحزب القومي وواشنطن بهدف تغيير النظام في دمشق. وأَوْحى مالك لشرابي وكأنّ اقتراحَه هو أقربُ إلى المعلومة منه إلى التّمنّي. وسرعانَ ما كتب شرابي إلى قيادة الحزب في دمشق، عبر أحد القياديين القوميين في بيروت، وهو الأديب سعيد تقي الدين، خلاصةَ الحوار، ولم ينسَ أن يُبدي موافقتَه على التعاون العتيد. ثم أَلحْق الرسالةَ الأولى بثلاثٍ. ولكنّ قيادة الحزب لم تُعِر الرسائلَ اهتمامًا ملحوظًا، بدليل أنّها لم تَتّخِذْ خطوةً عمليةً واحدةً باتجاه الاقتراح، واكتفتْ بحفظها. وحين اغتيل المالكي، صادرت السلطةُ السوريةُ أوراقَ الحزب، وعَثَرَتْ على الرسائل الأربع. ومنذ بدء التحقيق حتى الجلسة الأخيرة من المحاكمة، وللرسائل قرْصٌ في كلِّ عُرْس. وأصرّت دمشقُ الرسميةُ السياسيةُ والقضائيةُ والإعلاميةُ على تأويل الرسائل وكأنّها أكثرُ من مجرّدِ اقتراحٍ نَقَلَه أحدُ أعضاء الحزب إلى قيادته، بل عَدَّتْهُ إثباتًا على عمالة الحزب القومي لواشنطن. وشملت الحملاتُ الإعلاميةُ الدكتور شرابي، إضافةً إلى أنّ قاضي التحقيق اتّهمه في قراره الظنّي «بجناية الاتّصال بدولةٍ أجنبية.»[1] ولكنّ المحكمة العسكرية برّأتْ شرابي، لأنّ الاتصال اقتصر على شارل مالك. كذلك خَلَتْ محفوظاتُ الخارجية الأميركية من أيّ تقرير يفيد بحدوث أيّ اتفاقٍ أو حتى أيّ اتّصالٍ بين شرابي أو أيّ مسؤول من حزب بأيّ مسؤولٍ أميركي. ومع ذلك، فقد كان للرسائل وتداعياتها أثرٌ سلبيٌّ عميقٌ في نفس شرابي، أدّى فيما بعد إلى إبعاده كليّاً عن الحزب، من غير أن يُعلنَ انسحابَه بكتاب رسميّ يَنْشره في الصحف أو يوجّهه إلى القيادة الحزبية. والإعلان الوحيد للانسحاب من الحزب، بل وعدم الإيمان بالمبادئ، ظَهَرَا بصورةٍ مداورةٍ في كتابه **الجمر والرماد**، الصادر في العام ١٩٧٨.[2]

ولكنّ أثَر تجربته الحزبية لم يُمْحَ من ذاكرته ونتاجه. فقد تجلّى نهجُ سعادة في جهاد شرابي ونتاجِه المتمحورَيْن على المسألة الفلسطينية، وتحريرِ المرأة، والتفكيرِ العملي، خلال مرحلةٍ ما بعد عضويّته ومسؤولياته في الحزب القومي.

أما إعجابُه بسعادة الإنسان والقائد، فقد لازمه حتى اللحظة الأخيرة من حياته، فخصَّص له ثلثَ صفحاتِ كتابه **الجمر والرماد**. ثم كرّر فعلَ إيمانه به قبيْل رحيله، عبر محاضرةٍ ألقاها بمناسبة مئويته. ولكنّ ذلك لم يمنعْه من تكرار النقد اليتيم الذي سمعتُه منه أكثرَ من مرة، وهو: أنّ سعادة لم يدركْ عمقَ النظام الطائفي في لبنان وخطورته، فساهم ذلك في فشل الثورة التي استهدفتْ استبدالَه بنظامٍ علماني، وقد دَفَعَ [سعادة] حياتَه ثمنًا للفشل وهو في الخامسة والأربعين.

بيروت

جان داية

باحث من لبنان. له أكثر من عشرين كتابًا، منها: **المعلّم بطرس البستاني، عقيدة جبران، خليل حاوي والشعر الطليق، سعادة وهشام شرابي**.

---

١ ـ هاشم عثمان، **المحاكمات السياسية في سورية**، الطبعة الأولى، ص ٢٠٦.

٢ ـ **الجمر والرماد**، ص ٩٨.